ستائر لا تحجب الرؤى قصيدة القناع في شعر كاظم الحجاج: دراسة نقدية

م.م اثير حميد محمد

جامعة البصرة – كلية التربية

المقدمة:

ان الوقوف على قصيدة القناع في شعر كاظم الحجاج هو وقوف عند معاناة العالم العربي ككل والعراقي منه على وجه الخصوص كون الشاعرعانى الآمرين من هذا الواقع الأليم الذي كان سائداً آنذاك.

هذه المعاناة تركت بصمة واضحة" في حياة الحجاج ومن ثم كانت انعكاساتها على قصائده حتى انه التجأ في بعض الأحيان إلى الرمز فضلا" عن قصيدة القناع للتعبير عن الخوف وسطوته في عصر سادت فيه سياسة كسر الأقلام وقص الألسن والتي طالما عانى منها شاعرنا ولكنها لم تقف حجر عثرة في طريق إبداعه وتوصيل ما أراد التعبير عنه من نقده الواقع ومحاولة الايحاء بحل للتناقضات التي تحيط به فهو يقول:

إني فتى" كالبرتقالة شاحب
والبرتقالة لا تخاف
لكنما..
يصفر وجه البرتقالة
كلما قرب القطاف!

فهو يشبه نفسه بالبرتقالة وهذا رمز لان دالة اللون تتحد مع دالة العنوان فاللون هو الأصفر واسم القصيدة هو (نضج) واللون الأصفر في البرتقال دلالة على نضجها بينما دلالته في الإنسان الخوف والضعف والوهن وبالتالي فأنه حينما اشترك باللون مع البرتقالة فأنه خائف من قرب القطاف والمعروف أن القطاف اخذ الشيء عنوة فهو يخاف من القتل وليس من الموت.

لقد كان هذا التوجه لكاظم الحجاج محط إعجابي بشعره فضلا" عن تأثري بإصرار الشاعر على التواصل مع شعره ومجتمعه وارتباطاته الوثيقة بكل التغييرات المحيطة به سواء أكانت سياسية منها أم اقتصادية أم ثقافية الآمر الذي جعله على نسق واحد منذ أن عرف شاعرا فهو الداعي للانقلاب والثورة ولم الشمل والتكاتف واللحمة بين أبناء الوطن وفي ذلك يقول:

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

يا قريتنا.... لمي أبناءك
أيا ما كانوا
في أي مكان
يا قريتنا
مجد الرمانة
حب... الرمان

وتقنية القناع تعد من الوسائل البارزة والمميزة التي يمتاز بها شعر الحجاج، وعن طريقها كان يتكلم عن كل ما جاشت به نفسه ومشاعره ومن ثم تفريغ همومه وتعويض الكبت الذي يعاني منه.

فالتناقضات التي كانت تدور حول الشاعر والتي سادت المجتمع وهي لاتخفى على القارئ كان لها تأثير كبير في شاعرنا وعليه فقد أثرت تأثيرا مباشرا في اسلوبه في كتابة القصائد المقنعه ، وبسبب من أن القناع آلية بارزة في شعر الحجاج رأيت التركيز عليه في هذا البحث.

وقد تدرجت في دراستي للقناع في شعر الحجاج من أول ديوان ((أخيرا تحدث شهريار)) وصولا إلى أخر ديوان ((ما لا يشبه الأشياء)) محاولا الوقوف عند أنواع الأقنعة متتبعا التطور الذي حصل من مجموعة إلى أخرى فوجدت إن الشاعر قد نوع من أقنعته وعليه فقد قسم البحث تلك الأنواع إلى متوارث أو مكتسب وقد وضعت ضمن هذا النوع القناع التاريخي ةالاسطوري لانهما يمثلان تراث الامة بغض النظر عن كونهما حقيقة او اسطورة ، ونوع جديد ظهر لنا في دراستنا وهو ما أطلقنا عليه القناع المبتدع أي الذي ابتدعه الشاعر لنفسه فهو أسلوب جديد على ما نعتقد، وقد وجدنا أن الشاعر قد أكثر من استعمال النوع الأول وذلك يعود إلى تأثره بالتراث والشعراء الذين سبقوه.

وقد حاولنا في بحثنا هذا أن لا نتوسع في الاستشهاد بالأمثلة والإكثار منها وذلك لاعتقادنا أن أغلبية تلك الأقنعة جاءت لتعالج قضية واحدة وهي نقد الواقع المعيش لاسيما السياسي منه ، وذلك لان الواقع السياسي له اثر كبير في كل الجوانب الأخرى الاقتصادية والاجتماعية ونقد ذلك الواقع قد يعرض صاحبه الى المساءلة والاعتقال والظلم بكل صورة وأشكاله وعليه نجد الشعراء لاسيما الحجاج منهم يلجأون في كتاباتهم وقصائدهم إلى القناع كونه الملاذ لهم والذي يستطيعون من خلاله ان يعبروا عما تجيش به أنفسهم وعليه فقد لجأنا إلى الاعتماد على نموذج واحد للتعبير عن كل نوع، فجاءت دراستنا قصيرة غير مطولة.

ومن الله التوفيق

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

يعمد الشاعر كاظم الحجاج في كثير من اعماله الشعرية الى اللجوء الى تقنيات كثيرة معظمها حديثة، معتمداً في مرجعياته على اشارات كانت ولم تزل بصمة ً بارزةً في التأريخ، سواء أكانت مشرفة رافعة للهمم ام مخزية منكسة للرؤوس، او يلجأ الى توظيف شخصية تأريخية منادياً بصوتها مستغيثاً محاولا ً معالجة تناقضات تاريخه الحديث بنور التأريخ المضيء وهذا ما يسمى في النقد الحديث بالقناع وتذكر المعجمات الادبية أن القناع ((كلمة من أصل لاتيني، كان يطلق على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه في اثناء تمثيله للمسرحية.. وفي النقد الادبي الحديث، استعمل لفظ القناع للدلالة على شخصية المتكلم او الراوي في العمل الادبي، ويكون في اغلب الاحيان، هو المؤلف نفسه، والأساس النفسي لهذا المفهوم هو أن المؤلف، عندما يتكلم من خلال اثره الأدبي، يفعل ذلك عن طريق شخصية مختلفة ليست سوى مظهر من مظاهر شخصيته الكاملة، ويظهر ذلك جليا في ضمير المتكلم، مثلا في الرواية أو القصيدة، حيث لا يشترط أبدا أن يعادل ((أنا)) الراوي ((أنا)) المؤلف الحقيقي..)) [1]

والحجاج في هذا يسير على خطى من سبقه من الشعراء ويقتفي أثرهم ولهذا جاءت شخصياته التي تقنع بها مقشرة واضحة جلية للقاريء وذلك لان معظم أقنعته كانت قد استعملت من قبل الكثير من الشعراء ولكن الذي يميز الحجاج انه يتجدد مع العصر والتغيرات المحيطة به وعليه فأن استعمال الاسم نفسه ليس من الضروري أن يكون لغرض واحد وإنما لأغراض عدة.

فضلا عن ذلك فأن شاعرنا حينما لجأ إلى هذا النوع من التكنيك أراد أن ((يخلي مساحة لأنا أخرى، يظل على مبعدة منها ظاهرياً أو أدائيا، لكنه في الواقع يتطابق معها إلى حد التلاشي الصوتي والوجودي... في هيأة النص وتشكله النهائي))..[2]

محاولا تفريغ ما ضاق به صدره معالجاً قضايا عصره والتناقضات المحيطة به عن طريق مد جسور الماضي للحاضر وتوسيع دائرة التأثر ((وهذا ما سنلاحظه عند وقوفنا على الأمثلة والشواهد من شعر الحجاج)) ليجعل من الاثر اقل وطأةً مما لو كان قد ركز في الحاضر فقط، فمعالجة الحاضر والمستقبل تكون بالاستفادة من الماضي واخذ العبر وتشخيص نقاط الضعف والقوة والخطأ والصواب.

ولذلك فقد وجد الحجاج فيما وظفه الشعراء الذين سبقوه مهربا ومتنفسا له من الضيق المحيط به والمسيطر عليه، وذلك حينما جعل من شخصيات مثل كليب والحلاج وسليمان الحلبي وسلمان الصحابي شخصيات ((تنوب عنه في التعبير عن همومه وأفكاره ومشاغله وليحاكم متناقضات العصر من خلالها))...[3]

وعليه فقد اتخذ الحجاج أنماطاً مختلفة من الأقنعة التي يرتديها فنجده مرةً مواكباً للشعراء الذين سبقوه متخذاً من الشخصيات التأريخية أغطيةً يتوارى وراءها ((ومن شأن القناع– ان يأتي في الأغلب شخصية تأريخية – أن يعيد الشاعر إلى التأريخ ويضع بين يديه مادة قصصية تأريخية لابد من

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

روايتها، وهكذا فأن الحديث في قصيدة القناع يقدم بالفعل المضارع أي بأسلوب وزمن دراميين))...[4]

ونحن لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور شجاع العاني الذي جعل من الفعل المضارع سمةً رئيسه لقصيدة القناع، فالرجوع للماضي والتكلم بلسان الشخصية التأريخية واستعمال أفعال ماضية كانت من السمات البارزة في الكثير من قصائد القناع سواء أكانت للحجاج أم لغيره من الشعراء سنقف عندها لاحقا.

وقد يلجأ الشاعر إلى التقنع بشخصية أسطورية وهذا مما اتسم به الأدب الحديث لاسيما عند الشعراء العراقيين، حتى ان هناك إشارات إلى إن أول من أجاد استعمال الأسطورة هو السياب الذي كان توظيفه للأسطورة ليس توظيفا عشوائيا أو مصطنعاً بل يجعل منها مكوناً من مكونات النص الأساسية بحيث أن ازالتها أو رفعها من النص يعني القضاء على النص برمته فضلا عن انه كان يرمي من وراء توظيفه للأسطورة الوصول إلى غايات كل بحسب المناسبة التي قيلت فيها القصيدة، فها هو السياب في قصيدته (أغنية في شهرآب) يوظف تموز إله الخير قائلاً:

تموز يمـــــــــوت على الأفــق
وتغور دمــاه مع الشفــق
في الكهف المعتم والظلماء
نقاله إسعاف ســوداء
وكأن الليل قطيع نســـــــــــاء...[5]

فنلاحظ تماسك اسطورة تموز مع النص لأنها جزء رئيس من مكوناته بل الجزء الأهم وعليه فلا يمكن تسقيطها بأي شكل من الأشكال من ذلك نرى ((أن نشوء الأساطير وسقوطها ليسا مقتصرين على التيارات العلمية التي تزعزع ثقة الإنسان في أسطورته))...[6]

ولم يكن شاعرنا اقل نصيبا من السياب بل كان تجسيده للشخصية الأسطورية بنفس البراعة والإبداع (فقصيدة تعال الى حانتي) رسمت شخصية كلكامش بل تقنع بها وتقمص تلك الشخصية بأسلوب ينم عن إبداع وتميز وسنقف عند هذه القصيدة في صفحات بحثنا.

وإذا فرغت أوراق شاعرنا التقليدية راح يبحث له عن قناع من عنديات قناعٍ يخترعه هو ولم يسبقه احد من الشعراء له من قبل، قناع يمثل كاظم الحجاج ملقياً من خلاله بما جاشت به مشاعره والبراكين التي ثارت من خلجات نفسه، وهذه باعتقادنا صرخةً عاليةً مدويةً للتجديد فكما ذكرنا في مطلع بحثنا بأن هذه الأقنعة المتوارثة أصبحت بالية مزقها الاستعمال الرتيب للشعراء فلا يكاد يفرغ منها احد حتى يأخذها الأخر وشاعرنا يرفض هذا فالمطلع على أعماله الشعرية يلاحظ نزعة التجديد أخذه بالصعود من عمل لأخر.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

القناع المتوارث

يعرف القناع بأنه:- (هو الاسم الذي يتحدث من خلاله الشاعر ، وتخفى خلفه ، وخلاله للحديث عن نفسه بحيث يتجرد الشاعر من ذاتيته ، ويخلق وجودا مستقلا عنه ، ...على ان موضوع اختيار شخصية القناع مهم جدا ، كأن يكون اسطورة دالة او نموذجا تاريخيا جديرا بأن يعمد اليه الشاعر ليعبر عن افكاره ورؤاه).(7)

وهو في ذلك يسير على خطى من سبقوه من الشعراء والادباء ويحذو حذوهم، وذلك لان (التراث بصورة عامة يعد ارضا خصبا ومنبعا للالهام والابداع بصورة خاصة اذ ان عناصر التراث المضيئة وحتى العناصر السلبية في بعض الاحيان تشكل رموزا يمكن الافادة منها في عملية التواصل الحضاري لابناء الامة ، لانها غالبا ما تتمتع بتجارب نابضة بالحياة على الرغم من الامتداد الزمني).(8)

وأول وقفاتنا ستكون مع ديوان الحجاج الأول ((أخيرا تحدث شهريار))اذ نجد ان هذا الديوان قد تصدر بقصيدة قناع وهي ((المقتل الثاني لكليب)) حيث نرى ان الشاعر لم يترك بينه وبين شخصية كليب فسحة تسمح للمتلقي ان يفرق بينهما الامر الذي يجعلنا نستمع إلى صوت الشخصية وكأنها تتكلم عن نفسها قائلة:

فرشتُ أعيني لكم بساط سندسٍ
طحنتُ قهوتي لكم، طبختُ عزتي !
دعوتكم.. لم تسمعوا !
صرختُ في وجوهكم: يا أخوتي !
لم تسمعوا !
عاتبتكم – همساً – سحبتم السيوف!
لم أنهزم
قلتُ: إذا كان دمي
حلواً: فلا عز دمي!...[9]

فالشخصية الراوية كليب رئيس قبيلة تغلب عُرف بشجاعته وكرمه حيث قاد حرب البسوس، وحينما يوظف الشاعر هذه الشخصية فهو يرمي من خلالها الى التعبير عن محنة الوطن العربي وعدم التكاتف من بعض الدول وخذ لا نهم بعضهم بعضاً، فما كليب باعتقادنا ألا رمز للوطن العربي وطفلته التي تبكي هي فلسطين التي اغتصبت أمام عيون العرب وهم يسدلون الستائر لكي لا تظهر سوءاتهم، وعليه فأن (اختيارشخصية القناع لابد من ان تتمثل فيها صفة البطل النموذجي وان الشاعر ينجح كلما استبطن مشاعر هذا البطل في اعمق حالاتها الوجودية ومحنتها الانسانية والكونية وتجاوز ذلك...حين يسحبها الشاعر غلى عصره باحثا عن المثال ومتوسعا في الرؤيا من خلال صوت القناع).(10)

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وإذا دققنا النظر وجدنا انه يعانيه ((همساً)) والهمس هو الكلام بصوت منخفض وهذا عادةً لا يكون ألا بين الأخوة والأصدقاء والأحبة، لان الصوت ان ارتفع ظهرت سوءاتهم وضعفوا أمام الناس، ولكنهم يقابلون السر بالعلانية فالهمس سر وسحبهم السيوف جهراً وعلانية، فالتضاد اللغوي الذي نشهده هنا وفي عموم القصيدة فالصراخ وعدم السماع ((صرخت في وجوهكم لم تسمعوا)) فهذا التشخيص والتحديد بأن الصراخ كان قريباً جداً يستحيل معه عدم السماع بحيث انه يصوره بأنه صراخ في الوجه وعليه فأن هذا التضاد اللغوي ما هو إلا تعبير عن المعاناة النفسية والقلق والاضطراب والتناقضات في الأفكار والذي ترك بصمةً بارزة على الراوي ومن ثم فهي رسالة إلى المروي له يوصل من خلالها ما يعانيه عن طريق تلك الألفاظ والتضاد الذي حملته.

وعندما نستمر في قراءة النص نلاحظ انه يلجأ إلى أسلوب أقوى وأكثر تأثيراً وهو من خلال إثارته اسئله قائلاً:

سألتكم: أين ابنتي ؟

فيأتي الجواب على لسانه واصفاً اياهم بالخزي والعار حينما يقدمون ثوبها ملطخاً بالعار قائلا:

أعطيتموني ثوبها ملطخاً بالعار

فهم ملامسون العار شاهدون عليه. وهو جار أمام أعينهم وفي مسمع منهم. فما المقتل الثاني لكليب ألا الانتهاك الثاني للوطن العربي واستباحته وتدنيس أراضيه من غاصبيه الصهاينة وعدم دفاع أبنائه عنه وتخاذلهم وعليه فهو يصفهم بالخيانة والجبن.

ويمكن ان نعد هذا النوع من الأقنعة نوعاً متوارثاً حيث أنه قد ضمن من قبل أكثر من شاعر للتعبير عن القضية ذاتها ولكن بمعالجة مختلفة وتوظيف مغاير ولكنها مثلها مثل الروافد تجري في أرضٍ مختلفة لكنها تصب في مصبٍ واحد.

فالشاعر حينما أراد أن ينتقد الدول العربية متمثلةً في بعض حكامها وعدم وقوفهم مع بعض جنباً إلى جنب في خندق واحد، وذلك لأن ما يسوء دولة من أقطار الوطن العربي هو إساءة للعرب ككل، وعليه فقد استعان الراوي بالتأريخ بسحبه إلى الوقت الحاضر بمد جسور بين الماضي والحاضر وكأنها معالجة جديدة ولذلك فقد لجأ إلى استعمال أفعال ماضية ((فرشتُ، طحنتُ، طبختُ، صرفتُ، لمحتُ...)) وذلك ليجعل من المتلقي (المروي له) يعود الى الماضي متعايشاً معه روحاً وجسداً وكأن ما حدث يحدث أمامه الآن فهو عودة بالمتلقي للماضي ومن ثم المرور السريع على الأحداث وصولا الى الوقت الحاضر ليجعل من المتلقين أكثر تأثراً وتواصلاً، فضلاً عن تعايشهم مع الأحداث التي تسرد فهو سرد ذاتي يريد من خلاله الوصول لرؤية موضوعية تعالج موضوعا عاما وشاملا ، وهذا مما يؤيد ردنا على الدكتور شجاع العاني الذي جعل الفعل المضارع سمة" رئيسه لقصيدة القناع.**

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

ان شخصية المروي له في هذه القصيدة تتمدد وتتسع لتكون أعم وأشمل فالمقصود هو القارىء والمواطن العربي الحاضر المشاهد السامع والشاهد على كل العدوان والظلم وانتهاك حرمات شعبنا ومقدساتنا في فلسطين.

نعتقد أن الراوي أراد من خلال شخصية كليب ان يوظف هذا القناع للتعبير عن همومه ودواخله وهو يشاهد التخاذل واللامبالاة من العرب فكأنه يكوي جراحاته ليكفر عن ذنبه وذنب إخوانه.

وشاعرنا لديه إشارات على هذا التخاذل في قصائد عديدة منها قصيدة(من عصرنا الحجري) التي لم يضمنها في أي ديوان من دواوينه ولكنها نشرت في إحدى الصحف يقول فيها:

أسقط... وقم
من عصرك (الحجري) نبدأ من جديد
أسقط... وقم
لاشيء يبقى ان سقطت
ولم تقم غير العبيد
أسقط... وقم
لا تنتظر منا سوى دمع الحزين
وكأنما
خلق الإله لنا المحيط
وكأنما
خلق الإله لنا الخليج
لنكون بينهما.. فقط !!
أسقط... وقم
لا تنتظر أحدا
يجيء لكي يقيمك...([11])

نلاحظ ان القصيدة برمتها قد قامت على ضدية السقوط والقيام ولشدة وقعها عليه فانه يعمد الى تكرارها فضلا عما يورد بعدها (لاشيء يبقى ، لاتنتظر منا ، لاتنتظر احد...) فالشاعر يعلم المتلقي والذي يشير به للشعوب العربية ان النهوض والقيام لايكون الا منك وبك.

أما في قصيدة ((قراءة في سيرة أبي محجن الثقفي)) فقد وجد الشاعر ان هناك تشابهاً كبيراً بين شخصية أبي محجن وشخصيته الأمر الذي دفعه إلى كتابة قصيدة في سيرته وعليه فقد حاول ان يدمج بين أنا الشخصية وأنا الراوي فيتكلم بلسانه وذلك باعتقادنا راجع إلى إحساس الراوي ان شخصية الثقفي مشابهة لشخصيته وظروفها كذلك، الأمر الذي دفع به إلى الاختباء والتخفي وراء هذه الشخصية، فهو يجعل من دخول الثقفي الدين الإسلامي وإجبار أمرآته له للدخول في الدين الإسلامي قيداً وضع عليه هذا القيد جعله يصطنع ويفتعل كثيراً من الأمور الزائفة، والصحيح أنه كان ضعيف

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

الايمان بالاسلام لم يدخل اليه عن قناعة كاملة فهو لايمت إلى الدين بصله الأمر الذي حمله على احتساء الخمر أكثر مما عُهد عنه، وهذا الأمر هو الذي دفع بسعد بن أبي وقاص إلى زجه في السجن وعدم السماح له بالمشاركة في معركة القادسية مما جعله يهرب من السجن والتخفي حتى يتسنى له المشاركة فيها.

يقول الراوي:

تسلقتُ عاري جداراً إلى طهر نفسي
وفتشت عمن يراني بثوب الملاك
فلما رأتني فتاتي رمتني
وقالت: اذا أنت لم تلبس الزيف ثوباً
سأهوى سواك !... (12)

فالراوي يرى في هذه الشخصية ما يعبر عن مكنونات نفسه ويصرح من خلالها عن دواخله، وعليه جاء اتحاد الشخصيتين وتداخلهما وأمتزاجهما معاً وكأن المتلقي يستمع إلى الثقفي ولكننا ان رفعنا العنوان ((عنوان القصيدة)) وجدنا أنفسنا نستمع إلى الراوي نفسه وعليه فأن دالة العنوان والاسم الذي تحمله ما هي إلا ستار وقناع يتوارى به الراوي للتعبير عن ذاته وهمومه ليدفع بها إلى المتلقي ليخفف من وطأة تأثيرها وليخفف من حدة الأنظار التي قد توجه وتدور حوله لو جعلها قراءة في سير ة الحجاج...

فالراوي ((يوحي للقاريء هنا بأنه يحاول ان يعمم أفكاره ويسقطها على الشخصية (التأريخية) أو أنه يود أن يُنطق الشخصية التأريخية بما لم تنطق به، أو لم تكن مهيأة – ضمن حدودها التأريخية – لان تنطق بمثل آراء الشاعر المعاصر)).(13)

ومما نلاحظه أيضا اتحاد أنا الشخصية وأنا الراوي وكأننا نستمع إلى مونولوج درامي ((فما نستمع اليه عادة في المونولوج الدرامي هو في الواقع صوت الشاعر وقد لبس مسوح شخصية تأريخية أو شخصية روائية))...(14)

فالشاعر استعان بهذه الشخصية لمعالجة قضية معاصرة وهي العدوان على مصر من قبل الصهاينة ولذلك فقد استعان الراوي بأسلوبي التمني والتوسل وذلك أحساساً منه بوحدة القضية فكل بقعة عربية هي ديار لكل عربي ولهذا فالراوي المتماهي بالشخصية أراد بل تمنى ان تستفيق عظامه لان التراب أكلها قائلاً:

تمنيت حد البكاء استفيقي عظامي
توسلتُ حد البكاء استفيقي عظامي
تمنيت لو كان قبري قريبا لسينا
لغادرت موتي عظاما إليها
وسيفي عظامٌ وجرحي رفيقي! (15)

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

لكي يتسنى له ان يدافع عن الأرض العربية، فالراوي يحاول ان يستنهض الهمم ويحث الشباب للوقوف بوجه كل مستعمر وطامع، فالراوي ((يميل لان يجعل من قناعه رمزاً جماعياً وعالماً منفتحاً تطل من خلاله وجوه متعددة وملامح كثيرة لا تنتمي لقناع واحد، وإنما تشترك كلها من اجل إبراز فكرة الفعل الإنساني الطامح لأغناء واضاءة القضية... واعني بها فكرة الانتظار والثورة والتغيير))...[16]

وفي موطن اخر من الديوان نجد الشاعر قد ارتدى هذه المرة قناعاً مكشوفاً طالما استخدمه كثير من الشعراء والأدباء فهذه المرة يلجأ إلى التقنع بشخصية كلكامش وذلك عن طريق توحيد أنا الراوي مع أنا الشخصية حتى انه تماهي بين الشخصيتين ومن ثم التحدث بلسانها قائلا:

يا صاحبة الحانةِ..
أنكيدو.. مات
فلنرفع في صحته
نخبَ الغائب! (17)

فشخصية كلكامش طالما كانت ولم تزل ((رمزا للشخصية القلقلة الباحثة عن الخلود في مجتمع كل ما فيه يؤول إلى الفناء))...[18]

فالراوي يروي على لسان شخصيته فهو متحد بها ومتماه معها، معلما المتلقين ان لا خلود للإنسان في هذه الحياة ألا في العمل الصالح فعشبة الخلود التي يبحث عنها كلكامش والتي حصل عليها في الأسطورة لكنه اخفق في الواقع الحقيقي لأنه لا وجود لها إلا في الأثر الطيب الخالد والأعمال الفاضلة التي يقوم بها الإنسان تاركاً بصمتها في قلوب الناس من حوله وعقولهم.

إذن أراد الراوي ان يرمز إلى الإنسان والتغييرات السريعة المحيطة به وتأثيرها فيه فهو مهدد قلق وعليه فهو يحاول أن يجد له ما يخلد اسمه ويديم ذكراه حتى لا تكون حياته ومماته ووجوده وعدمه سواء.

وقد ضمن هذا القناع في أكثر من قصيدة ومنها قصيدة تعال إلى حانتي في ديوانه الأخير مالا يشبه الأشياء. (19)

وعند وقوفنا على قصيدة (تعال إلى حانتي) نجد أن الراوي لم يصرح باسم قناعه ولم يتكلم بلسانه ولكنه ذكر كل المتعلقات المحيطة به فمنذ أول شطر (ارجع إلى اوروك) نلاحظ ان هناك اشارة ان طلب الرجوع موجه الى كلكامش الذي ترك حكمه وعرشه وبلاده (اوروك)متوجها للبحث عن عشبة الخلود مثلما تقول الأسطورة فذكر المدينة والالهة والارباك الذي خلفه غياب الحاكم وما حل بالبلاد من خراب وجوع ومرض فالراوي باعتقادنا كان موفقا الى حد ما في استعمال وتوظيف قناعه وذلك كونه اراد معالجة امر معين عن طريق توظيفه لهذه الشخصية واستعمال قناعها ليتوارى من وراءه ويتستر به فهو اراد تعليم وارشاد الحكام بالابتعاد عن التفكير في مصالحهم الشخصية والانتباه

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

الى رعاياهم والاخذ بيدهم للنهوض بهم الى مستوى افضل بالتعاون والتكاتف فيما بينهم فكانت غاية الراوي النصح والارشاد والتعليم.

القناع المبتدع

وهو القناع الذي ابتكره الشاعر لنفسه –ان جاز لنا التعبير– وذلك في ديوان(غزالة الصبا) فنجد شاعرنا قد خرق القوانين وكسر الرتابة وأعلن عن ثورته بوجه التقليد والموروث المتعارف عليه فقصيدة (من ألواح الشاعر السومري أنا هو) نلاحظ ان الشاعر قد وظف ضميري المتكلم والمخاطب جنباً إلى جنب وهذا ما لم يشهده الأدب الحديث وعلى حد علمنا لم يسبقه احد من الشعراء أليه فقد اتخذ من نفسه قناعاً لنفسه و ذلك ما ذهب اليه الدكتور صلاح فضل (الذي جعل أنا الشاعر قناعا ل هو..) (20) فهو الغائب والحاضر والمتكلم والمخاطب والموجود وغير الموجود والمجبر والمتخير كل هذه الضديات وجدت في قصيدته وهي تعبير عن الصراع النفسي والوجودي الذي عانى ويعاني منه الحجاج فهو حينما يقول:

لأني نحيل،
لم أكلف الربَ طيناً ليخلقني!
صاحَ بي: يا أنا هو
فتحتُ عيوني
أيما وطنٍ تشتهي؟ قالَ
قلتُ: الجنوب...[21]

ان الراوي الممسرح المتماهي بالشخصية أراد معالجة قضية مهمة وهي هل الإنسان مخير أم مسير؟ وذلك حينما نقرأ النص أعلاه نلاحظ ان الله سبحانه وتعالى قد خير الإنسان لاختيار المكان ونوع الطعام....الخ وعندما تقرأ النص وأسلوب الخطاب المتبع نجد ان هذا الأسلوب في الخطاب لا يكون بين الخالق والمخلوق– إلا إذا كان هذا المخلوق ذا شأن– مثل الأنبياء والملائكة ونستثني الملائكة لأنهم لم يخلقوا من طين، فضلا عن ذلك الألفاظ التي استعملها الراوي ومنها ((صاحَ بي)) ففعل الصياح– أي الكلام بصوت مرتفع– لا يليق بالخالق فهو منزه عن التشبيه بالمخلوقات، وهذه الأفعال خاصة بالمخلوقات أي ان الله تعالى هو الذي جعلهم على هذه الشاكلة فلا يمكن ان يتصف الخالق بصفات المخلوق.

نعتقد بأن الراوي حينما أراد معالجة اختيار الإنسان في هذه الحياة ناقشها من وجهة نظر خاصة تتناسب مع توجهات المؤلف الضمني ومعتقداته المادية البحت لذلك جاء أسلوبه متسماً بالسخرية والتهكم بقوله:

لأني نحيل..لم أكلف الرب طيناً ليخلقني!

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فضلا عن انه لم يركز على فعل القول وإنما على ما قيل، وهذا باعتقادنا ينم عن اللامبالاة فحينما يقول:

أيما وطنٍ تشتهي؟ قال

فكان الأولى ان يقول:

قال: أيما وطنٍ .....

فتقديم هذا الفعل يدل على احترام وإجلال لقائلهِ وهو الله عز وجل وهذا من الأساليب البلاغية المعروفة والتي يطلق عليها البلاغيون التقديم للعناية والاهتمام فمتى ما اهتممنا بفعل القول قدمناه ومتى ما وجهنا عنايتنا واهتمامنا للقائل تقدم.

وعندما نستمر بقراءة النص نجد الحجاج يؤكد في مكان آخر على انه اجبر على كل شيء الشكل والأهل والدين... الخ فهو يذكر قائلاً:

ابن واحد

ماذا يدعي؟

تعنين الاسمَ.....

لقد قطعت له أوراقاً

في كل منها اسمٌ وتركت له ان يختار

فهذا خيرٌ من ان نفرض كل الأشياءِ

على الأبناء الدينَ وشكلَ الوجه

وميراث العاهات.. أحتى الأسماء؟ (22)

(وعلى الرغم من كل التقنيات المضمونية والاسلوبية التي تضمنتها القصيدة العربية الحديثة فقد بقيت هيمنة (انا الشاعر) ازاء موضوعه القائم في الخارج). (23).

وهذا باعتقادنا يعد من ابرز عيوب قصيدة القناع. ولعل الراوي (يندفع في تغذية نصه بشتى الرموز والاساطير والاقنعة متدرجا في استخدامها من الوعي البسيط بها ووضعها هامدة مجتزاة في النص الى جعلها الهيكل او العمود الفقري للنص ودخولها في لحمة نسيجه البنائي). (24).

ان القصيدة لاتحتاج الى تمعن فالشاعر ومنذ الابيات الاولى نجده ناقدا" وثائرا على الواقع بل تدرج في نقده فيبدأ بنفسه اولا بعد ان كان مزارعا يعمر الارض ويزرعها اصبح يحرقها ويقص الاشجار حتى انه سحق باقدامه الازهار وهدم المكاتب وحرقها كل هذه الافعال يذكرها الشاعر ويقول بانه اجبر على فعلها فهو نقد للواقع بكل اشكاله السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ومن الملفت للنظر ان هذا اللقاء الاذاعي الذي نهضت علية القصيدة قد افتقر للاسم فمنذ بداية القصيدة وتقديم هذا المزارع لم يذكر اسمه وصولا الى نهايتها التي يقول فيها:

شكرا، والى أن القاك..

*- بنتي ..

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

– ماذا ؟

* – لم اذكر اسمي للناس !

– لا تذكره ..

فجهاز اذاعتنا حساس !(25)

فهو لم يذكر اسمه وهي لم تذكره ايضا خوفا عليه وذلك كونه ضمن في كلامه نقدا للواقع وبالتالي فأن ذكر الاسم قد يعرضه للخطر.

فالراوي أراد ان يجعل من المتلقي قاضيا وفاصلا كلٌ يقضي بالوجهة التي يراها مناسبة، فهو يعرض الحقائق مصوراً ذلك عن طريق تقنية التقطيع السينمائي وترتيب المشاهد، ليجعل من المتلقي أكثر تقبلا للنص ومتأثراً به ومشدوداً معه.

فضلا عن ذلك فأن الراوي حينما يوظف له قناعاً خاصاً لا وجود له فهو أسلوب جديد لإثارة المتلقي وذلك لكي يدفع به إلى التساؤل القائل لماذا استعان الراوي بقناع جديد؟ وما يحمل هذا القناع؟ ولماذا وظف، ولماذا يحمل ضميرين: الحاضر والغائب؟ فهو باعتقادنا كسر للرتابة وتغيير المألوف وكأنه يريد ان يقول ان كل الأقنعة التأريخية وغيرها لا يستطيع ان يتوارى وراءها ولا تمثله ولا تعبر عنه ولم تعالج الجوانب التي يسعى لمعالجتها الأمر الذي دفعه إلى ابتكار قناع خاص به للتعبير عن مكنونات نفسه ومعالجة تناقضات الحياة بأسلوب جديد مغاير لما تعارف عليه المتلقون وهو تأكيد لهويته الرافضة للواقع بقوله (أنا هو).

خاتمة البحث:

لقد توصلنا من خلال البحث الى النتائج الآتية:

1. وجد البحث تنوعاً في استعمال القناع لدى الحجاج، فقد استعمل القناع المتوارث والذي ضم القناع التأريخي والقناع الاسطوري.
2. برز لدينا في البحث قناع جديد اسماه البحث القناع المبتدع.
3. وجد البحث كثرة استعمال القناع المتوارث، وذلك على ما نعتقد يعود إلى ان الشاعر كان على إطلاع بالتراث وملما به بعمق.
4. كشف البحث عن تنوع في الأقنعة وقام بتصنيفها.

الهوامش:

1– معجم مصطلحات الادب: مجدي وهبة، مكتبة لبنان – بيروت 1974، مادة (قناع المؤلف).

2– مرايا نرسيس: الانماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة. د. حاتم الصكر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

3- البنية السردية في شعر يوسف الصائغ: محمد احمد ص116.(رسالة ماجستير مقدمة الى مجلة كلية التربية ، جامعة البصرة ، سنة 2002م).

4- السرد في القصيدة الغنائية الحديثة: د. شجاع العاني ص70. مجلة الاقلام عدد 4-5 نيسان – ايار 1994.

5- ديوان بدر شاكر السياب: م1 دار العودة بيروت 1974.

6- إحسان عباس والنقد الادبي: محي الدين صبحي ص94، الدار العربية للكتاب المطبعة العربية التونسية بنعروس. 1984.

7- الموسوعة الصغيرة، قصيدة القناع في الشعر العربي الحديث، دراسة ومختارات، محمد جميل شلش، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، ص21-22-بغداد-2001.

8- قصيدة القناع في الشعر العربي الحديث ، ضياء راضي الثامري، رسالة ماجستيرمطبوعة على الالة الكاتبة، كلية الاداب جامعة البصرة، ص48، . 1991.

9- اخيرا تحدث شهريار: كاظم الحجاج، مطبعة الأديب البغدادية، 1973.

**وقد وجدنا الكثير من القصائد التي تعتمد الفعل الماضي سمه لها منها ، سعدي يوسف، ديوان الليالي كلها، ديوان سعدي يوسف، ط3، المجلد1، بيروت دار العودة 1988، ص102.عبدالوهاب البياتي –ديوان قصائد حب على بوابات العالم السبع ، ط3، القاهرة-دارالشروق، 1985، ص11.ديوان اخيرا تحدث شهريار ، ص9، ص25.

10- الموسوعة الصغيرة، قصيدة القناع في الشعر العربي الحديث، دراسة ومختارات، محمد جميل شلش، ص22.

11- قصيدة من عصرك الحجري: كاظم الحجاج، جريدة الجمهورية الاثنين 1994/4/25، ع 8719، 7.

12-أخيرا تحدث شهريار ص39.

13- دير الملاك ص118 دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العربي المعاصر د. محسن اطيمش وزارة الثقافة والأعلام بغداد 1982.

14-السرد في القصيدة الغنائية الحديثة: د. شجاع العاني مجلة الاقلام عدد 4-5 نيسان – أيار 1994، 68.

15-اخيرا تحدث شهريار: 39.

16- دير الملاك ص118.

17- غزالة الصبا، ديوان شعر كاظم الحجاج دار الينابيع للطباعة والنشر، عمان، الطبعة الأولى، 1999 .75.

18- كتاب المنزلات: طراد الكبيسي، منزلة القراءة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ج^3 ، 1996.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)